زوجتي ...!

وفاء ورثاء

للدكتور أحمد زكي أبو شادي

سافر إلى نيويورك يوم الأحد الماضي الدكتور أحمد زكي أبو شادي ليقيم بها هو وأسرته ، وقد أرسل إلينا ليلة سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه :

« كان بودي أن أزورك مودعاً قبيل مبارحة وطني الذي لم تسمح لي الظروف بخدمته كما أود ، ولكن أحوالي الخاصة لم تمكني من مغادرة الأسكندرية لهذا القصد ، وسأبحر منها مع أولادي على الباخرة ڤلكانيا Vulcania يوم الأحد ١٤ أبريل وعلى فمي بيت المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم !

وكان بودي لو حملت رسالة توديعي طاقة باسمة لا هذه المرثية الحزينة لزوجتي ولكنها أغلى ما أملكه الآن وقد ارتسمت فيها ذكرياتي وعواطفي وأشجاني »

كتب الله للدكتور السلامة ، ومن عليه في مهجره بطيب الاقامة .

ماذا تُفيدُكِ لوعتي وبكائي ؟ هذا قَناؤكِ مُؤْذِنٌ بفنائي !
أَسْدَيتِ عمركِ للحياة فأوفت ومضيتِ للأبرار والشُّهداء
لهفي عليكِ وقد أتيتُ مودِّعاً فبكيتُ فوق جبينكِ الوضاء
زاد الممات جمالَه وتناثرتْ مني الدموعُ عليكِ كالأنداء
كانت حُشاشتيَ المذابةَ حرقةً وبقيّةَ الكنوز من نَعمائي
فترنحتْ بفجيعتي، وتضوّعتْ بسريرتي ، وتلألأت بوفائي
ورَوَت مُحيّاً كان جنةَ نِعمتي وملاذَ تفكيري ووحيَ ذكائي
وطرحتِ آلام الحياة عزيزةً فبدوْتِ بين سماحةٍ وصفاء
وأقبّلُ الوجه الحبيب ، وطالما أودعتُ فيه صبابتي ورجائي
شملَ السلامُ هدوءه وتبدّدت غيرُ السنين، وزال بَرْحُ الدّاء
وأكادُ أنسى للممات خشوعه لما نسيتُ تجلدّي ومضائي
كم كنتُ أُعلّقُ بالخيال توهماً وأرى الشّفاء ولاتَ حين شفاء
ويغالطُ القدرَ العتيَّ تفاؤلي وأنا الخصيمُ لخِدْعةٍ ورياء
آبيَ اعترافاً بالممات ، كأنني لما بكيتُكِ قد أضِلُّ بُكائي
أو أن هذا الموت حق ثابت إلا على الأحباب والخلصاء
أو أن عيشي أن أراكِ بجانبي مهما هُزلتِ فلا يهدُّ بنائي

٢٦ ٠٣٣

أعتاضُ باللمحات عن أُغنيّةٍ وعن الحديث العذب بالإيماء
وأعدُّ أنفاساً وهَبْتِ، ذخيرتي وحفيفَ ألفاظٍ همستِ، رخائي
وأموّهُ الألم الدفين وأتّقي علماً به ، وأصدُّه بغبائي
وأكادُ أقسو في مُجانبةٍ له أوليس جسمكِ رمزَ كل نقاء؟
متنزّهاً عن كل ماشان الورى مترفعاً عن عِلّةٍ وعناء
حتى صُدمتُ ، ولا كصدمةِ شاهقٍ
متحطمٍ بصخوره الصمّاء
فجننتُ من حُزني وعِفتُ حصانتي
ودَفنتُ كلَّ رجاحتي العمياء !

* * *

لهفي عليكِ زميلتي في رحلتي وشريكتي في الصفو والضراء
لم أرْضَ غيري أن يسير مُشيّعاً أو أن تُوزّع حرقتي وعنائي
وكتمتُ نعيكِ، كم أضن بذكره وأحوطُه بنُهايَ واستحيائي
لبّيتُ رغبتكِ الزّكيةَ دائماً ووعيتُها نبلاً ولطفَ حياء
وجعلتِ مأتمكِ الرهيبَ عواطفي وبخلتُ بالتنويهِ والإفضاء
حتى تفجّر بي الأنين مَلاحماً وجرى النظيمُ بأدمعي ودمائي
ما كنتُ أحسبُ أن يومكِ سابقي أو أن أيامَ الحياةِ ورائي
كنا سَويّين للرحيل متاعنا ونُسَوّقُ الآمالَ غيرَ بطاء
ونهيبُ بالدنيا لتشهدَ حظنا ونهشُّ للأيامِ والأنباء
ونردُّ عاديةَ الأنامِ تسامُحاً مستغفرينِ لجاحدٍ ومرائي
متسابقين لنملأ الدنيا سَنَى بالحبِّ والإيثارِ والإيحاء
فإذا رحيلكِ للنّوَى، ووداعنا للحظّ ، والباقي الكليمُ ذَمائي
غدرت بي الدنيا ، كأني لم أسُغْ فيها الثناء فما أفادَ ثنائي
ووهبتها ـ كرماً ـ عزيزَ مواهبي فجنَتْ عليّ شهامتي وعطائي
اليومَ أدركُ أيَّ عبءٍ فادحٍ عني رفعتِ وما مدَى أعبائي
كم كنتِ أحلم بالهناءةِ والرِّضى لكِ في نهايةِ عُمركِ المتنائي
فأودُّ من قلبي بقاءكِ بعدما افنَى وأحسبُ في هواكِ بقائي
وأعدُّ عمركِ وحده عمري وما أرضَى سِواكِ من الحياة جزائي
فتناثرَ الحلمُ الجميلُ وأقفرَتْ دنياي من حُلمٍ ومن أضواء
وبقيتُ وحدي لاعزاء أرومُه والذكرياتُ تزيدُ من بُرحائي
يا طالما ناجيتها في نشوتي والبوم قد أصبحنَ من أعدائي
ما نِعمتي فيها ؟ وأنتِ هي التي جعلتِ بصُحبتها الأسى نعمائي

يامن فُتِنْتِ بكل ما هو رائعٌ ... وخلقتِ ألوان الجمالِ ازائى
ورسمتِ لى دنيا مُنوَّعة الشذى ... قدسيَّةَ الألحانِ والأصداء
وبثثتِ بى حبَّ الطبيعة فاغتدت ... أُمىَ ، أضعْتِ عزاءَها وعزائى
يامن غناؤكِ شدْوُها وحنينها ... وصداهُ فى قلبى الشجى غنائى
لما سكَتِّ تقاطرَتْ عبراتها ... واستسلمتْ للدَّوْعةِ الخرساء
ومضى الرَّبيع مع الشتاء فلم أجد ... إلا مظاهر وحشة وخلاء
تبكيكِ أخلص من وفت لرؤاها ... وتصوفت بروحها النعماء
ورأت بها الخير اللباب فما شكت ... منها وناجتها أرقَّ نجاء
وتناولت ألقَ النجوم فأترعت ... منه دنانَ الحب للشعراء
كم ألهمتنى من عُيونكِ صورة ... جمعت أحبَّ عواطفٍ ورؤائى
وتبسُّمٌ تتبسَّمُ الدنيا له ... ويغيب عن معنى وعن خيلاء
ورشاقةٌ ممسولةٌ ملحونةٌ ... كقصيدةٍ خلابةٍ عصماء
كم كنت أهتف بالنشيد ولم يكن ... إلا خطوط جمالك الوضاء
تجرى اليراعةُ فى يدى مزهوةً ... بتنزلى ، ويهزنى إملائى
مترعةً بالحبِّ بين ولائمٍ ... للزهر والأمواه والأضواء
وإخالُ فى دعةِ المروج جنانَنا ... وأشيم فى ألقِ الغدير سمائى
أيامَ كنا والشبيبةُ والهوى ... حلفاء فى أمنٍ من الغرماء
أيام كنا نستعيدُ تراءنا ... قُبلا ، ونضحك من غنى وثراء
أيام كنا الحاكمين بأمرنا ... الساكنين منازلَ الجوزاء
أيام كنا ذاهلين عن الرَّدَى ... نجرى ونمرح فى الربى الفيحاء
ونخوض موج البحر ملء دعابة ... متعانقين على هدير الماء
متحمسين كأنما خمرُ الصبا ... خمر الألوهةِ من أعزِّ سماء
متلهفين بكلِّ شىء لذةٌ ... ومطوعين المستحيل النائى
وإذا غضبنا عاد حبك غافراً ... وتعثرت شكواك عند ندائى
وفرحت بى فرح الحبيب بإلفه ... قد عادَ بعد مخاطرٍ هوجاء
عشنا السنين كأنها أنشودة ... علويةٌ جلَّت عن الغوغاء
متجددين ، وإذ فقدتك لم يكن ... فقدى لغير فتاتىَ الهيفاء
من رامها أهلُ الفنونِ نموذجاً ... للمبدعين ومن لها أهوائى
من صوتها الحلو الشجى سلافتى ... وحنانها المذب السخى دوائى
من لم تدع غير البشاشة وحدها ... تغشى خواطرها لنقدِ الرائى
من أشربت حب الدعابة سمحة ... واستضحكت لمصاعب الأشياء
من لم تر الدنيا سوى تغريدة ... فأبتْ هواجسها أشدَّ إباء
من لم تردَّدْ غير آمالِ الصبا ... لتردَّنى لطلاقتى ورضائى
من عشت أفديها بكل جوارحى ... فإذا الفداء يهونُ وهى فدائى
من علمتنى أن أقدس واجبى ... مهما شقيت فأستطيب شقائى
من لم تودِّعْ فى السقام وفاءها ... للناس حين مضوْا بكلِّ وفاء
من لم تفارقها الشجاعةُ مرة ... حتى الممات ، شجاعة العظماء
فمضت وخلَّتنى وحيداً عابراً ... قفرَ الحياةِ أنوء بالأنواء
هيمان ، قربك وحده مستنقذى ... ظمآن ، ليس سواكِ ريَّ ظمائى
أفتاتُ بالحزنِ المبرِّح راضياً ... وأعافُ كلَّ ملاحةٍ وسناء
وأضمت فى بعد موتك فى الأسى ... وكأنما صُوَرُ الجمال بلائى
من طالما ناجيتها متغزِّلا ... غرداً ، فمات بهاؤها وبهائى
كانت لروحى منك أُنسَ مدامة ... ومجالَ أشواقٍ ومرتعَ صفاء
ومثلتِ أنت بكلِّ ما أحببته ... فالآنَ أينَ تهافتى ومجانى
أين ابتسامتكِ الشذيةُ بالمنى ... والنورِ حين أهيمُ فى الظلماء
أين ابتداعكِ للحديثِ تفنُّناً ... وتسلسلا يغنى عن الندماء
أين اغتباطكِ بالمروءة والندى ... والعطف والغفران والإسداء
قبرَتْ كما غاب النهارُ أشعةً ... وكأنما أشلاؤها أشلائى
وتركت فى دنيا القساوة والأذى ... متهالكا أمشى على الرمضاء

* * *

قالوا : تصبر ! إن حولك رفقة ... منها ، وحسبك صفوةُ الأبناء
ورثوا مكارم خلقها وسماتها ... إرثاً تُدلُّ به على الآباء !
يا ليتهم عرفوا شمول عواطفى ... ووفاء وجدانى وصدقَ ولائى
شيم شقيت بها وما عف الورى ... فأثارهُمْ شمعى وفرطُ إبائى
وبقيت أسخر من جراحى هازئاً ... بفواجع الآلامِ والأرزاء
مستلهماً من لم تدعنى مرة ... فى الحادثاتِ أضيقُ بالأحياء
فالآن بعد ذهابها ومصابها ... لم يغننى شمعى ولا استعلائى !

* * *

تمضى الحوادثُ والسنونُ وتنقضى
أممٌ على أممٍ صباحَ مساء
ويظلُّ قلبى هيكلاً لكِ خالداً ... أبداً يرتِّلُ لوعتى ورثائى !

احمد زكى أبو شادى